يونس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الصافات: ١٣٩ - ١٤٤)

صدق الله العظيم

الحديث عن يونس عليه السلام يثير فى النفس العديد من علامات الاستفهام. . الإجابة عليها توضح كيف يجب على الإنسان أن يطيع أوامر الله. . وأن يرضى بقضاءه. . لأن الله يعلم ونحن لا نعلم. . والله يعرف ما وراء الأسرار. . ونحن لا نعرف شيئا. . فطاعة الله واجبة. . والصبر فى القضاء من صميم الإيمان . . إن قصة سيدنا يونس عليه السلام توضح للإنسان عظمة القدرة الإلهية. . فإذا كانت هناك قوانين تسير عليها دنيا الناس. . فإن خالق القانون يمكنه أن يعطل هذا القانون. . وهذا ليس بقدرة الإنسان. . فإذا كانت من طبائع الأشياء أن المعدة تهضم وتمثل ما يدخل جوفها. . فإن المعجزة الإلهية عطلت هذا القانون بالنسبة لمكوث يونس فى بطن الحوت دون أن يمسه سوء. .

لنبدأ القصة. . ومن خلال خيوطها يمكننا أن نرى ما فيها من مغزى دون حاجة إلى توضيح المغزى. . لأن المغزى واضح فى نسيج القصة نفسها. .

وسيدنا يونس. . اسمه بالكامل. . يونس بن متى. . وقد جاءته الرسالة وكان فى الثامنة والعشرين من عمره. . وقيل أن الزمن الذى وجد فيه نبى الله كان فى زمن الطوائف الذين حكموا الفرس. . وقد

أطلق عليه البعض يونان بن ماتى. . وقد اختلف من تناولوا سيرته هل متى أو ماتى. . اسم الأب. . أو اسم الأم. . ومايعنينا هنا هو أن الله سبحانه وتعالى ذكر قصته فى القرآن الكريم. . أما التفاسير فقد تناولت القصة بأكثر من أسلوب. . وإن كان المغزى فى النهاية لا يختلف عليه أحد. .

فقد قال البعض: أن يونس مكث فى بطن الحوت أربعين يوما. . وقال البعض الآخر: لقد مكث عدة أيام وليالى، وقال الآخرون: بل مكث ثلاثة أيام. . ومايعنينا هنا أن يونس قد ابتلعه الحوت بالفعل. . وسواء مكث عدة أيام وليال أو حتى عدة ساعات. . فالمعجزة موجودة. . وهى أن يونس عليه السلام وجد نفسه فى ظلمات بطن الحوت. . وأن معدة الحوت لم تهضم جسده. . بل ظل سليما. . يشعر بالوحدة والرهبة فى هذا الظلام الذى يحيطه. . ظلام البحر وظلام أعماق الحوت. . ولا أحد يعرف هذه الرهبة التى لا يمكن تصور مدى عنفها. . ومدى ما يمكن أن يعيش فيه الإنسان من رعب إلا من يعيش هذه التجربة. . وهى تجربة مستحيلة. . فلم تتحقق إلا مرة واحدة. . ولم يجربها إلا شخص واحد، وهو يونس عليه السلام. .

ولك أن تتخيل إنسانا يعيش فى سجن الظلمات هذا. . داخل بطن الحوت. . ثم كيف يمكن أن يكون دعاء نبى يجد نفسه فى هذا

السجن. . ويشعر بالذنب. . إنه يتجه بكل كيانه إلى الله ليغفر له ما قدمت يداه. .

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾[الصافات: ١٣٩ - ١٤٢].

ولكن لماذا أبق يونس. . ولماذا أذنب؟ وما هو هذا الذنب الذى ارتكبه حتى امتحنه الله هذا الامتحان الرهيب؟

إن يونس عليه السلام أخذ يدعو قومه إلى التوحيد. . وإلى عبادة الله وحده. . والسير فى الطريق المستقيم. . والبعد عن الضلالات وطريق الغواية. . ولكن قومه صموا آذانهم عن دعوته فلم يستجيبوا لها. . ووعده الله سبحانه وتعالى أنه سوف ينزل عذابه بهؤلاء الناس. . وعليه أن يصبر لحكم الله. . وقال يونس للناس أن الله سوف ينزل عليهم عقابه. . فاستهزأوا أول الأمر. . وخرج يونس عليه السلام. . قبل أن ينزل العذاب. . خرج دون أن يأذن الله له بذلك. . وشاهد الناس نذر العذاب. . فقد بدأت أماراته. . وخشى الناس العذاب. . فتابوا إلى الله. . وتوسلوا إليه أن ينزل عليهم رحمته. . فتاب الله عليهم. . ووقف يونس ينتظر ماذا يفعل الله بالناس. . ولكن شيئا لم يحدث! . .

فخشى أن يعود إلى قومه فيزدرونه ويسخرون منه. . فابتعد عن قومه. . هربا منهم. . وتوجه بعيدا. . حيث وصل إلى شاطىء البحر. . ووجد سفينة فركبها. . ولكن السفينة سارت فى طريقها فترة ثم توقفت عن السير. . هنا توجه قائدها إلى الركاب. . وقال لهم إن فيهم واحداً مشئوما. . وقرروا أن يقوموا بقرعة. . ومن تقع عليه القرعة يلقونه فى البحر. . ووقعت القرعة على يونس بعد إجرائها عدة مرات. . وكان هناك حوت يحوم حول السفينة كأنه مأمور أن ينتظر هذا الشىء الذى سيلقى له. . وألقى يونس بنفسه فى البحر. . والتقمه الحوت. . وابتلعه!. .

وفى تلك الأعماق المظلمة. . وفى هذا السجن الرهيب شعر يونس. . بأنه مازال على قيد الحياة. . وأنه فى جوف الحوت. . وأن معدة الحوت لا تضغط عليه. . ولكنه عاش فى رعب وخوف وفزع. . وتذكر كيف أنه خرج من القرية قبل أن يقع العذاب عليه دون أمر من الله. . فتاب إلى الله وأناب.

إن القرآن الكريم وصف هذا الحادث فى قوله تعالى:

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات : ١٤٢].

بمعنى أن الحوت التقمه بسبب ارتكابه ما يلام عليه. . ولكن الله كان يريد امتحانه. . فهو من المسبحين. .

﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات ١٤٣ ، ١٤٤].

ومعنى هذا أنه لأنه من المسبحين لله فإن الله نجاه.. وإلا لظل فى بطن الحوت.. ثم أصبح البحر مقبرته إلى يوم البعث..

لقد نادى يونس ربه فى سجنه فى بطن الحوت..

﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

وغفر الله له.. وأوحى إلى الحوت أن يلفظه.. ولفظه الحوت فى مكان لا زرع فيه ولا نبات.. حيث خرج إلى الدنيا من جديد.. كان سقيما عليلا من طول سجنه.. فأنبت الله شجرة من يقطين فأظلته.. إلى أن استرد عافيته.. وعاد إلى قومه.. ليتم رسالة الله.. وآمن به الناس وزادوا به تعلقا.. وهكذا عاش يونس بين قومه.. والدرس الخالد.. درس الابتلاء مازال يلازم فكره.. ولكن كان عزاؤه رضاء الله عنه.. ورحمته له.. وإيمان قومه به:

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

قصة تذكر المؤمنين بقدرة الله ورحمته الواسعة بلا حدود. . وتجاوزه عن الخطايا. . ولكن المهم أن يتوب العبد. . وأن يرجع إليه سبحانه ويسبحه ويقدسه. .

وإذا كان الأنبياء وهم صفوة الخلق يخطئون ويبتلون. . فهم عظة وعبرة لغيرهم. . حتى يرجعوا إلى الله. . وعند الله دائما الهداية والرحمة والتوفيق. .

أما بالنسبة لذكر المرأة ودورها فى حياة نبينا يونس عليه السلام. . فلم يرد ذكر أحداث مفصلة عنها. . ولكننا لا نغفل دورها كأم. . وزوجة. . وأخت. . فمن من البشر لم يكن للمرأة دور فى حياته!!

والأنبياء بشر كباقى البشر. . .

* * *